جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

من أسرار التعبير النبوي بالتشبيه والاستعارة

(قراءة تأملية في أحاديث من صحيح البخاري)

إعداد

أ د/ سحر مصطفى إبراهيم المُعَنَّا

أستاذ البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات القاهرة – جامعة الأزهر
وأستاذ البلاغة والنقد المشارك بكلية العلوم والآداب - جامعة نجران

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

من أسرار التعبير النبوي بالتشبيه والاستعارة
(قراءة تأملية في أحاديث من صحيح البخاري)

سحر مصطفى إبراهيم المُعَنَّا

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

أستاذ البلاغة والنقد المشارك بكلية العلوم والآداب، جامعة نجران، المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني:dr.sahar52015@gmail.com .

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استخراج الصور التشبيهية والاستعارية من الأحاديث المختارة، وتوضيح أثرها الإقناعي في نفس المتلقي، كما تهدف إلى الكشف عن الأسرار البلاغية، والسمات الجمالية للتصوير في البيان النبوي، من خلال النماذج المختارة، وتهدف أيضًا إلى بيان كيفية تكاتُف الأساليب وتآزُر التراكيب وتعاوُن الفنون البلاغية في البيان النبوي مع الصورة التشبيهية والاستعارية، لإخراج المعنى في أبهى حُلة، وتأكيد الفكرة، وتثبيتها في الأذهان، ولقد نهجت في هذا البحث المنهج الوصفي، مستعينةً بأداة التحليل، فبمقتضاه قمت بتحديد الصورة التشبيهية والاستعارية، ثم قمت بتحليلها وبيان أثرها في المتلقي، ومن أسباب اختياري لهذا الموضوع: انشغال معظم الباحثين المهتمين بالدرس البلاغي عن الحديث النبوي، وتوجيه أغلب جهودهم نحو القرآن الكريم، فأردت أن أكون من الذين ينالهم شرف العمل في هذا النص النبوي المبارك، والتعرُّف على سمات التصوير في البيان النبوي، وبخاصة في التشبيه والاستعارة؛ وذلك لما لهما من التأثير الإقناعي في المتلقي، وكذا الوقوف على تعاون الفنون والألوان البلاغية مع التشبيه والاستعارة في البيان النبوي لإبراز المعنى في أوضح صورة، وجعله أكثر تأثيرًا.

الكلمات المفتاحية: أسرار، تشبيه، استعارة، قراءة، تأملية، صحيح البخاري.

One of the secrets of the prophetic expression through analogy and metaphor (contemplative reading on hadiths from Sahih al-Bukhari)

Sahar Mustafa Ibrahim Al-Moanna
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Associate Professor of Rhetoric and Criticism, College of Arts and Sciences, Najran University, Saudi Arabia.
Email: dr.sahar52015@gmail.com.

Abstract:
This study aims to extract figurative and metaphorical images from the selected hadiths, and to clarify their persuasive effect on the recipient. The structures and the cooperation of the rhetorical arts in the prophetic statement with the simulated and metaphorical image, to bring out the meaning in the best way, confirm the idea, and fix it in the minds. In this research, I followed the descriptive approach, using the analysis tool. The recipient, and among the reasons for choosing this topic: Most of the researchers interested in the rhetorical study are preoccupied with the Prophet's hadith, and direct most of their efforts towards the Holy Qur'an. metaphor: This is because of their persuasive effect on the recipient, as well as standing on the cooperation of arts and rhetorical colors with simile and metaphor in the prophetic statement to highlight the meaning in the clearest form, and make it more influential.

Keywords: Secrets, Analogy, Metaphor, Reading, Contemplation, Sahih Al-Bukhari.

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونسترضيه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الرحمة المهداة والنعمة المسداة، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه الدراسة تهتم بتحليل الصورة البيانية، وبخاصة الصور التشبيهية والاستعارية في البيان النبوي، والكشف عن أسرارها البلاغية الكامنة، وذلك من خلال أحاديث مختارة من صحيح البخاري، إذ إن البيان النبوي يعتلي قمة البيان البشري؛ فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، فكلامه ﷺ نهاية في البيان، وغاية في البرهان، والرسول ﷺ يمتلك معجمًا لغويًّا كبيرًا ساعده على انتقاء الألفاظ المناسبة لأحاديثه الشريفة، فكان حجة لغوية بعد القرآن الكريم.

وحين نتفيأ ظلال الحديث النبوي الشريف نجد أنفسنا أمام جوامع لغوية أدبية تربوية علمية لم يُعرَف في الأرض نظير لها ولن يُعرَف، وبلاغة النبي ﷺ بلاغة "إنسانية سجدت الأفكار لآياتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة"(١).

فبلاغته ﷺ لا تعلوها بلاغة بشرية، وألفاظه ﷺ مألوفة مأنوسة الاستعمال، إلا حين يقتضي المعنى لفظًا يناسبه، فيختار الرسول ﷺ اللفظ الأقل إلفًا، ولكنه ينأى عن الغريب الوحشي، وعن السوقي المبتذل، وألفاظه جزلة حين يقتضي المعنى الجزالة، رقيقة حين يتطلب المعنى الرقة، وفي الحالتين هي

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص ٢٧٩ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط٧ ١٩٦١م).

واضحة الدلالة على معانيها، كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها، مستقرة في مكانها من الجملة من غير اضطراب، ولعل تعبير اللفظ عن تمام المعنى المراد، واستقراره في مكانه من الجملة من أشق ما يعانيه البليغ.

وقد وصف الجاحظ كلام الرسول ﷺ وسمات ألفاظه وجمله، وموقعه في النفس، بقوله: "هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثُرَ عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّهَ عن التكلّف... واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصورَ في موضع القصر، وهجرَ الغريب الوحشي... ثم لم يَسمَعِ الناسُ بكلام قط أعمَّ نفعًا، ولا أقصدَ لفظًا، ولا أعدلَ وزنًا، ولا أجملَ مذهبًا، ولا أكرمَ مطلبًا، ولا أقصدَ لفظًا، ولا أحسنَ موقعًا، ولا أسهلَ مخرجًا، ولا أفصحَ معنى، ولا أبينَ في فحوى من كلامه ﷺ كثيرًا"(١).

ومن أسباب اختياري لهذا الموضوع:

١) انشغال معظم الباحثين المهتمين بالدرس البلاغي عن الحديث النبوي، وتوجيه أغلب جهودهم نحو القرآن الكريم، فأردت أن أكون من الذين ينالهم شرف العمل في هذا النص النبوي المبارك .

٢) التعرُّف على سمات التصوير في البيان النبوي، وبخاصة في التشبيه والاستعارة؛ وذلك لما لهما من التأثير الإقناعي في المتلقي.

٣) الوقوف على تعاون الفنون والألوان البلاغية مع التشبيه والاستعارة في البيان النبوي لإبراز المعنى في أوضح صورة، وجعله أكثر تأثيرًا.

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ج ٢، ص ١٦ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٧ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م).

وتهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١) استخراج الصور التشبيهية والاستعارية من الأحاديث المختارة، وتوضيح أثرها الإقناعي في نفس المتلقي.

٢) الكشف عن الأسرار البلاغية، والسمات الجمالية للتصوير في البيان النبوي، من خلال النماذج المختارة، وتأكيد دورها التأثيري.

٣) بيان كيفية تكاتف الأساليب وتآزر التراكيب وتعاون الفنون البلاغية في البيان النبوي مع الصورة التشبيهية والاستعارية، لإخراج المعنى في أبهى حُلة، وتأكيد الفكرة، وتثبيتها في الأذهان.

ولقد نهجت في هذا البحث المنهج الوصفي، مستعيناً بأداة التحليل ، فبمقتضاه قمت بتحديد الصورة التشبيهية والاستعارية، ثم قمت بتحليلها وبيان أثرها في المتلقي.

وتشتمل هذه الدراسة على مقدمة ومبحثين وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع .

المقدمة: اشتملت على أهمية البحث وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول: من أسرار التعبير النبوي بالتشبيه – قراءة تأملية في أحاديث من صحيح البخاري.

المبحث الثاني : من أسرار التعبير النبوي بالاستعارة – قراءة تأملية في أحاديث من صحيح البخاري.

الخاتمة: وفيها النتائج المهمة التي توصلتُ إليها، وكذلك التوصيات.

وقد استقيت مادة بحثي هذا من كتب الحديث وكتب البلاغة واللغة.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصل اللهم على محمد وآله وبارك.

المبحث الأول:

من بلاغة التشبيه في البيان النبوي – قراءة في أحاديث من صحيح البخاري

التشبيه أسلوب من أساليب البيان، وهو قديم قدم التعبير؛ وذلك لأنه وسيلة مهمة من وسائل الإيضاح والإبانة، وأسهل طريقة لتقريب البعيد من المعاني، وفيه تتكامل الصورة وتتدافع المشاهد؛ ليؤدي رسالة ذات أثر، وليحقق أغراضه النفسية من خلال وظيفته التي تتأتى من دوره في نقل الشعور بأشكالٍ وألوانٍ شتى، من نفس إلى نفس.

وكما كثر التشبيه في كلام العرب عامة، وفي القرآن الكريم خاصة، كثر كذلك في البيان النبوي الذي نجده يفيض بمشاهد ذات خيالٍ خصب، حيث كان ﷺ يؤْثر التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المشاهدة المستمدة من حياة المخاطبين؛ لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ﷺ بطريقة سهلة جميلة، تضاعف قواها في تحريك النفوس لها.

ومن الأحاديث التي تتضح من خلالها بلاغة التشبيه في البيان النبوي ما ورَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ[١] أنه قَالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي[٢]، قَالَ

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح، بكسر الراء وفتح الياء آخر الحروف، بن عبد الله بن قرط بن رزاح بفتح الراء أوله ثم زاي مفتوحة أيضًا، ابن عدي أخي مرة بن كعب بن لؤي العدوي القرشي. روى الكثير وروى عنه كثير، ينظر: عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، للشيخ الإمام العلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، ج ١ – ص ١٨.

(٢) شجر البوادي: الشجر والشجرة ما كان على ساق من نبات الأرض، والبوادي جمع بادية، وهي خلاف الحاضرة، والبدو مثل البادية والنسبة إليها بدوي. ينظر لسان العرب – والقاموس المحيط، مادة (ش – ج – ر)، ومادة (ب – د – و).

عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ"(١).

في هذا الحديث يوضح لنا رسول الله ﷺ ضرورة أن يكون المسلم نافعًا لغيره، وذلك بعد أن وجه سؤالاً لأصحابه الأجلاء عن شجرة لا يسقط ورقها، وأن المسلم يشبهها، وقد فكَّر كل منهم تفكيرًا مختلفًا عن الآخر، فقد وقع في نفوس بعضهم أن هذه الشجرة شجرةٌ من شجر البوادي، ووقع في نفس عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنها النخلة، ومِن شدة حيائه لم يخبر بهذا الأمر فانتظر حتى أجاب الرسول ﷺ بأنها النخلة، وحتى يبين رسول الله ﷺ هذا الأمر ويثبته في أذهان أصحابه أتى بالتشبيه الذي يوضح الفكرة ويؤكدها، في قوله ﷺ: "وإنها مثل المسلم"، حيث شبه الرسول ﷺ حال المسلم بحال النخلة تشبيهًا تمثيليًّا، والوجه شيوع النفع، ودوام الخير في كل، وقيل إن رسول الله ﷺ قد شبه المسلم بالنخلة لـ"أن النخلة إذا قطعت رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر. وقال بعضهم: لأنها لا تحمل حتى تلقح. وقال بعضهم لأنها تموت إذا مزقت أو فسد ما هو كالقلب لها. وقال بعضهم: لأن لطلعها رائحة المني. وقال بعضهم: إنها تعشق كالإنسان، وهذه الأقوال كلها ضعيفة من حيث إن التشبيه إنما وقع بالمسلم، وهذه المعاني تشمل المسلم والكافر"(٢).

وقد كان لهذا التشبيه التمثيلي الأثر العظيم في وضوح المعنى؛ حيث كان

(١) أخرجه البخاري، ك العلم، باب قول المحدث حدثنا أخبرنا وأنابنا، ح ٥٩، وباب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم، ح ٦٠، وباب الفهم في العلم، ح ٧٠، باب الحياء في العلم، ح ١٢٨، وأيضًا ك البيوع باب بيع الجمار وأكله، ح ٢٠٥٧، ك الأطعمة، باب بركة النخل، ح ٥٠٢٨.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، جـ٢، صـ١٤ (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م).

سببًا من أسباب فهم الفكرة، وتصور المعاني في الذهن، والبعث على النظر والتدبر، يقول صاحب الصناعتين: "التشبيه يزيد المعنى وضوحًا ويكسبه تأكيدًا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد عنه"(١).

والتشبيه في هذا الحديث من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، فالمسلم منافعُه تعقل، والنخلة منافعها تلمَس وتشاهَد، فالحقيقة الحسية أسبق حصولاً في النفس من الأمور العقلية، والنفس آلف للأمور الحسية البدهية المسلمة وأميل، يقول عبد القاهر مبينًا ذلك: "إن الشاعر وغير الشاعر إذا أوقع المعنى في نفسك غير ممثل مثله لك كنت كمثلك مع مَن يصف لك شيئًا من وراء حجاب ثم يكشفه عنه، ويقول: ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت لك"(٢).

وهذا التشبيه يشعر بارتفاع شأن المسلم وعظمته وتميزه عن سائر البشر؛ إذ المسلم الحقيقي يمتد نفعه إلى كل من حوله، وليس هذا فحسب، بل يبقى بعد موته بالأعمال النافعة التي قام بها قبل موته، كما يوحي بقوة المسلم الحقيقي وشدة صلاحه ودوام ثباته على الحق، كأن قوته استُشعِرت من طول النخلة وضخامتها، وشدة صلابته استوحيت من شدة ثبات جذعها في الأرض، ودوام ثباته على الحق يُستَقَى من طول عمرها؛ إذ النخل من الأشجار التي تعمر زمنًا طويلًا.

وقد تكاتفت الفنون البلاغية الأخرى مع التشبيه لإبراز المعنى وإيضاحه، فقد صدر الرسول ﷺ الحديث بجملة مؤكدة بأكثر من مؤكد؛ "إنَّ من الشجر شجرة" تتمثل في اسمية الجملة والأداة (إنَّ)، وذلك للإشعار بأن ما يقوله

(٧) الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٤٣ (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٩ هـ).

(٢) أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: السيد رشيد رضا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م).

الرسول ﷺ حكمٌ ثابت محقَّق لا شك فيه ولا مراء، وهذا الكلام "مخرج على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطبين فيه كانوا مستشرفين كاستشراف الطالب المتردد؛ فلذلك حسن تأكيده بـ(إنَّ) وصوْغه بالجملة الاسمية"(١).

وتنكير "شجرة" يتآزر مع التشبيه في إبراز المعنى المراد، فيوحي هذا التنكير بعظم هذه الشجرة وفخامتها، وهذه العظمة وتلك الفخامة تأتيان من ضخامة جذع النخلة أو طول ساقها وفروعها، كما تأتيان من المنافع الجمة التي تحملها تلك الشجرة لبني الإنسان. ولمزيد من الإشعار بالتأكيد والتقوية آثر التعبير مرة أخرى بالجملة الاسمية المؤكدة "وإنها مثل المسلم".

ويختبر رسول الله ﷺ ذكاء الجلوس ويكشف عن ثقافتهم الدنيوية بالأمر في قوله: "حدثوني"، وغرضه ﷺ من وراء ذلك تنمية قدراتهم العقلية وشحذ فكرهم وإيقاظ عقولهم.

ويلجأ الرسول ﷺ إلى أسلوب الإثارة والتشويق ليحقق معنى التشبيه؛ إذ يأتي أسلوب الاستفهام في قوله: "ما هي"، وذلك ليثبت المعنى في ذهن سامعيه بعد تفكير وإجابة منهم على سؤاله صلى الله عليه وسلم، كأنه يطلب منهم الجواب ليطيل شوقهم ويزيد انتباههم. وإن أسلوب الاستفهام وسيلة ناجحة في الترغيب، وهو أجدى في فرض الحكم عن حقيقة الأمر، فكان من الممكن أن يخبرهم ﷺ بالمعلومة من أول الأمر بالأسلوب التقريري، لكنه ﷺ يعلم علمًا جيدًا أن السؤال حينما يلقَى وتُنتَظر إجابته، ثم تُعرَف، تكون أوقع في النفس وأثبت في الذاكرة؛ إذ حصل عليها السامع بعد تفكير ومجهود ذهني.

ويؤْثر النبي الكريم التعريف بضمير الخطاب في قوله: "هي"، لأن ضمير المخاطب يزيد المعنى الذي أفاده التشبيه إيضاحًا وتقريرًا، وكان من الممكن أن

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، جـ٢ – صـ ١٤.

يكون التعريف عن طريق اسم الإشارة مثلاً، كأن يقال: "ما تلك الشجرة؟"، إلا أن التعريف بالضمير فيه بيان للفكرة التي يقصدها الرسول ﷺ، كما أن فيه تشويقًا لم يكن في غيره.

وبعد أن وجه الرسول ﷺ سؤاله للجلوس ظن معظمهم أنه يقصد شجر البوادي، إلا عبد الله بن عمر الذي وقع في ظنه أنها النخلة، لكنه من شدة حيائه لم يستطع أن يخبر بذلك، فانتظر حتى يجيب الرسول ﷺ ويخبرهم بأن هذه الشجرة هي النخلة. والغرض من الخبر في قول الراوي: "فوقع الناس في شجر البوادي" التنبيه على خطأ الجلوس فيما وصلوا إليه بفكرهم. والخبر في قوله: "فوقع في نفسي أنها النخلة" يبين حدة ذكاء عبد الله بن عمر وشدة ألمعيته وتميزه.

والتعبير "فاستحييت" يوحي بشدة أدب عبد الله بن عمر وعلو أخلاقه، فقد استحيى أن يجيب عن السؤال أمام الرسول ﷺ، وإن كانت الإجابة صحيحة، إلا أنه أبى أن ينطق بها هيبة لرسول الله ﷺ.

والاستفهام في قوله: "حدثنا ما هي يا رسول الله؟" يكشف عن الحَيرة التي وقع فيها الجلوس مع رسول الله ﷺ، ولهفتهم في معرفة الإجابة، فقد أصبحوا بعد السؤال والتفكير ملهوفين لمعرفة الشجرة، متشوقين إلى الوصول إليها بتفكيرهم، وقد جعلتهم الحَيرة التي وقعوا فيها يطلبون من رسول الله ﷺ أن يخبرهم بتلك الشجرة.

ويتعاون فن الذكر مع الفنون البلاغية في مؤازرة التشبيه لتجلية الصورة وإيضاح المعنى، فقد ذكر رسول الله ﷺ المسند إليه في قوله: "هي النخلة" زيادة في التقرير والتأكيد، فقد كان من الممكن أن يقال: "قال: النخلة"، لكنه ﷺ أراد أن يلفت انتباههم ويشحذ فكرهم حتى يستعدوا لتلقي المعلومة كاملة بتركيز تام، ولا يشرد أحدٌ منهم.

وننتقل إلى تشبيه نبوي آخر لنستمتع ببلاغته الفائقة ونرتشف من ريقه

العذب الفياض؛ فعَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى[1] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ[2] وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ"[3].

في هذا الحديث الشريف يوضح لنا الرسول الكريم ﷺ أن ما بُعث به من قِبل الله عز وجل من هدى وعلم يهدي به الناس ويعلمه للآخرين يشبه الغيث، وهو المطر الذي يأتي بالخير الكثير، فيصيب ثلاث طوائف من الأرض، منها الأرض النقية الصالحة للزراعة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهو نوع من الأرض يشبه من فقه في دين الله ونفعه ما بعث به الرسول ﷺ إليه، فعَلِم وعَلَّم.

ومنها الأرض الصلبة الجدباء التي لا تشرب الماء، لكنها تمسك به، فهي لا تنتفع به ولا يتسرب من خلالها، فهي تحمل الخير للآخرين؛ لأنها وعاء يحفظ فحسب ما يحتاج إليه الناس من الماء وهي محرومة منه، والذي يشبه هذا النوع من الناس فريق أخذَه الكبرياء، فلم يلق بالًا لما بين يديه من دين الله، فلا هو

(١) هو موسى عبد الله بن قيس الأشعري، يروي عن أبي رافع، وروى عنه سالم أبو النضر.

(٢) الكلأ: العشب والكلأ والحشيش، كلها أسماء للنبات، لكن الحشيش مختص باليابس، والعشب والكلأ مختصان بالرطب، والكلأ بالهمز يقع على اليابس والرطب. ينظر صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٥ ص ٥١ (بيروت: دار المعرفة، ط٥، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م).

(٣) أخرجه عن أبي موسى الأشعري، مرفوعًا، البخاري في كتاب العلم – باب فضل من عَلِم وعَلم، ح ٧٧.

عارضه ورفضه، ولا هو أخذ منه وانتفع به ونفع غيره، ولكنه قابله ببله، فأصبح كالأرض الجدباء التي تعد وسيلة ينتقل منها الخير إلى الآخرين، بغير إرادة ولا وعي.

ومنها أيضًا الأرض المستوية الملساء تشرب الماء ولا تحفظه، فلا هي كالنوع الأول الذي ينبت الكلأ والعشب الكثير، ولا كالنوع الثاني الذي يحفظ الماء ويُبقِي عليه، لكنها مستوية ملساء، ويشبه هذا النوع من الناس كل من أبى قبول شيء من دين الله وهداه، ورفض أن يدخل في دين الله، فلا نفعَ نفسه بشيء من الهدى والعلم ولا نفع غيره.

فالرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف قد ضرب مثلاً رائعًا، وجاء بتمثيل عجيب؛ إذ شبه ما أرسل به من عند الله عز وجل من هدى وعلم بالغيث، وهذا الغيث قد أصاب ثلاثة أنواع من الأرض، وهذه الأنواع الثلاثة شبه بها ثلاثة أنواع من البشر؛ إذ شبه النوعين الأولين بمن فقِهَ في دين الله، ونفعه ما بعث به الرسول ﷺ من خير، فعَلِمه وعَلَّمه، وشبه النوع الثالث من الأرض بمن يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، وهو الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: "مثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".

والتشبيه في الحديث من قبيل التشبيه التمثيلي، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس، وقد نقلَنا هذا التشبيه من الخيال إلى عالم الحس بما فيه من مشاهد ملموسة، فجاءت الصورة واضحة الأركان شاحذة للأذهان وباعثة على الفكر والتدبر. وقد ذكر الرسول ﷺ في تمثيله هذا "الكاف"، وهي هنا "لا للتشبيه الفني الخالص بل لإيقاع التساوي بين أمرين"[1].

(١) من بلاغة القرآن، د/ أحمد أحمد بدوي، ص ٢١١ (القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت).

وقد تعانق مع التشبيه فن بديعي رائع جعل المعنى مستوفيًا والفكرة واضحة، ألا وهو فن صحة الأقسام؛ حيث قسم النبي الكريم الأرض إلى ثلاثة أنواع، وبالفعل لا رابع لها، وفي المقابل جعل الناس الذين يشبهون هذه الأراضي ثلاثة أنواع، ولا رابع لهذه الأنواع كذلك، وبهذا يكون النبي الكريم قد استوفَى أقسام طرفي التشبيه جميعها، مما جعل المعنى جليًا والمقصود بارزًا، "ومثل ليس أداة تشبيه مكررة، وإنما هي كلمة تنقل الصورة من عالم الذهن والخيال إلى عالم الحس والواقع، لأن أصلها يدل على المثول والانتقال والحضور من مكان إلى مكان آخر"(١). "وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها"(٢).

ومن هنا يتبين لنا أن الناس الذين يتلقون الهدى والعلم من الرسول ﷺ طوائف ثلاث؛ هم:

١- العالم العامل المعلم.

٢ العالم المعلم الذي لا يعمل بعلمه.

٣- الذي يتقبل العلم ولا يعمل به ولا ينقله لغيره.

ونلاحظ في هذا البيان النبوي الرائع أن الرسول ﷺ قد أتى بالتشبيه الملفوف، فلم يذكر مع كل نوع ما يشبهه، وإنما ذكر أنواع المشبه به أولاً ثم أتبعه بذكر المشبه، وقد كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام، ليقدم لنا صورة بيانية متكاملة الأبعاد والأطراف للناس في مقابلة دين الله وهداه الذي بعث به

(١) ينظر: في رحاب البلاغة النبوية، د/ فرج كامل سليم، ص ٥١ (المنصورة: مطبعة ومكتبة الرضا، د.ت).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلانِي، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن باز، ج ١، ص ٢٥٩ (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).

إليهم. والصورة التشبيهية "ترسم لنا صورة الغيث وهو يتراءى لأناس يتعهدهم الموت عطشًا، فيستردون أنفاسهم حين أصابهم من الماء قدر يسد حاجتهم ويكفيهم بحيث لا يعوق سير حياتهم، وقد وصف الغيث بالكثير؛ ليوحي بالأمان مع تلك الكثرة. وقد عرفت الصفة والموصوف باللام إمعانًا في إحضار الصورة وتجسيمها. وحتى تكتمل الصورة ويتم الترابط أتبع الوصف بجملة حالية في قوله ﷺ: "أصاب أرضًا"، فالمشبه به ليس هو الغيث الكثير على إطلاقه ولكنه الغيث الكثير حالة كونه "أصاب أرضًا"(١)، وألفاظ الحديث وتراكيبه بما فيها من ألوان بلاغية قد تعاونت جميعها لمساندة التشبيه في بيان المعنى وإيضاحه.

فقد آثر أفصح العرب التعبير بلفظ "بعث" بدلًا من لفظ (أرسل)، وذلك لأن البعث في أصله إحياء وإيقاظ من غفلة أو موت، فالكلمة توحي بأن ما جاء من الله أحدث أثره في الرسول ﷺ، ثم انتقل هذا الأثر إلى الآخرين، كما أن التعبير بلفظ (بعث) يوحي بأن الرسول ﷺ جدد للأمة نشاطها وحركتها، وأن الأمة بذاك يستقر أمرها ويخلد شأنها ويدوم مُلكها، أما الإرسال فهو الإطلاق عن القيود، لأن الشخص الذي كلف بتبليغ رسالة ليس أكثر من حامل لشيء يبلغه للآخرين من غير أن يتأثر هو به، وأن يعرف عنه شيئًا أصلاً، وهذا ليس مراد الرسول الكريم ﷺ.

وكذا التعبير بالفعل الماضي "بعث" يؤازر التشبيه؛ إذ يشعر هذا التعبير بأن هذا الأمر – بعث الرسول ﷺ بالهدى والعلم – واقع وقوعًا حتميًّا ونافذ لا محالة، لأن البعث من قبل الله عز وجل لا من قبل أي أحد.

وليضفي رسول الله القدسية والمهابة على الحور أسند الفعل "بعث" إلى لفظ الجلالة "الله"، في قوله: "ما بعثني به الله"، فهو حجاج بذي السلطة الأعظم

(١) في رحاب البلاغة النبوية، ص ٥٢.

جل وعلا، وذلك لإدخال الهيبة في نفوس السامعين، فيكون هذا أدعى لعدم تكذيبهم واعتراضهم عليه، وأدعى لسرعة الاستجابة له ﷺ. ويزيد من فاعلية التشبيه قوله: "من الهدى والعلم"؛ حيث جاء هذا القول بيانًا لما أبهم في قوله: "ما بعثني الله به" وإزالةً للغموض الذي يحيط بالصورة، لأن الهدى والعلم بعض ما بعث الله به، وفي هذا إشارة إلى أنه بعث بغير ذلك، وآثار ذلك واضحة، ومظاهره أكثر.

ومما زاد التشبيه قوة، تشبيهُ الرسول ﷺ ما بعث به بالغيث؛ لأن حاجة الناس إلى الدين – بما يشمله من هدى وعلم – كحاجة الأرض إلى الغيث، بل يمكن أن تكون حاجة الناس إلى الدين أكثر، فكما أن الغيث يحيي الأرض الميتة، فإن علوم الدين تحيي القلوب الميتة.

وللحذف دوره الفاعل في تأثير التشبيه في المتلقي، حيث حذف المسند إليه في قوله: "كمثل غيث"، والتقدير (هو كمثل غيث)، فقد حقق الحذف الإيجاز والمسارعة إلى المطلوب، وهو تصوير ما بعث به الرسول ﷺ بصورة واضحة محسوسة، يتقبلها الناس ويفهمونها فهمًا جيدًا.

وقد أضفى على التشبيه جمالًا ملاحَظًا إيثارُه – عليه الصلاة والسلام – كلمة "الغيث" على غيرها كالماء والمطر والوابل؛ لأن "الغيث" يوحي بما يرجى منه وما يعود به من الخير الوفير على من يصيب، فالغيث مطر يغيثنا، لأنه ينزل بقدر، بحيث يصيب من هم في حاجة إليه. والألِف واللام في (الغيث) للعهد، فالغيث المقصود هو الغيث المعهود المتعارف عليه والذي يعم الأرض طيبها وقيعانها، فيميز معادنها، ويكشف عن جوهرها.

وجاء تنكير "أرض" ليعمق فكرة من الأفكار التي أتى بها التشبيه، وهي تنوع البشر واختلافهم؛ إذ يوحي هذا التنكير بتنوع هذه الأرض وتفاوتها واختلاف تربتها، فمنها الأرض النقية ومنها الأجادب ومنها القيعان الملساء. ولم تكن كلمة "نقية" فضْلةً في تعبير الرسول ﷺ: "فكان منها نقية"، وإنما أوتي بها لنكتة دقيقة في

السياق؛ وهي أن الأرض صالحة قوية، فكلمة "نقية" تشمل صفات الطيبة والجودة والخصب والخلو من الشوائب التي تقضي على النبات في مهده.

والتعبير بكلمة (قبلت) "من أدق التعبيرات النبوية، وذلك لأن القبول من الإقبال، وفيه معنى الحب والألفة، وميل القلب، وشرح الصدور، وذكر هذه الكلمة في الحديث الشريف إشارة إلى هذا، وكان يمكن أن يقال: (نقية أمسكت الماء وأنبتت الكلأ والعشب)، كما قال في الأجادب التي تشترك مع هذه في حفظ الماء، يقال نقية حفظت الماء وأنبتت الكلأ والعشب، ولكن كلمة (قبلت) تصف حالة قبول القلب الحي لفقه المعرفة، وأنه قبول تخامره نشوة وتجد له الروح حلاوة ولذة، فالعقل الحي يهتز بالمعرفة ويربو كما تهتز الأرض الحية بالماء وتربو"[(١)].

ويأتي الإطناب في قوله: "فأنبتت الكلأ والعشب الكثير" ليزيد المعنى وضوحًا، وهذا الإطناب قد تحقق عن طريق ذكر الخاص "العشب" بعد العام "الكلأ"، فإن الكلأ هو النبات الرطب واليابس، والعشب هو الرطب من النبات، وعلى هذا فإن الإطناب قد وضح المعنى وأكده، وهو أن الأرض المشار إليها صالحة لكل أنواع الزراعة.

ونلاحظ أن الرسول ﷺ حينما تحدث عن الأرض الصالحة للزراعة التي تنتفع بالماء قال عنها: "نقية" بالإفراد، وحينما تحدث عن غيرها قال: "الأجادب والقيعان" بالجمع؛ وذلك لأن الأرض الصالحة للزراعة في الدنيا محدودة ونبتها قليل، أما الأجادب والقيعان فهي كثيرة كثرة فائقة، ومثلها ما يقابلها من الناس (متلقى العلم من الرسول ﷺ)، وهذا يشهد بسعة معرفته وغزارة علمه ودقة تعبيره صلى الله عليه وسلم.

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د. محمد أبو موسَى، ص ١٧٥ (القاهرة: مطبعة وهبة، ط١، ١٤٢١هـ).

ويأتي القصر ليساعد في تحقيق التشبيه وتأثيره، وذلك من خلال الإشارة إلى النوع الثالث من الأرض التي تمثل طائفةً من الناس، في قوله: "وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ"، وهذا القصر من باب قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا طريقه "إنما"، وفي هذا إبراز لقبح هؤلاء الذين شبهوا بهذا النوع من الأرض، فلا خير فيهم مطلقًا، لا لأنفسهم ولا لغيرهم، فمنهم كافرون ومعرضون عن دين الله.

وتتعانق الكناية مع التشبيه في قوله: "مثل من لم يرفع بذلك رأسًا"؛ حيث كنى بهذا القول عن التكبر، وهذه الكناية أكدت المعنى الذي أفاده التشبيه؛ إذ توحي بأن هذا الشخص لم يلتفت إلى دين الله ولم يرفع رأسه لينظر إليه. والكناية "من أروع الفنون البيانية وأرقى الطرق البلاغية التي يعبر بها المتكلم عن المعنى الذي يريده تعبيرًا موجزًا هادفًا لطيفًا، يخفي وراء ظلاله أهدافًا ولطائف يريدها ويقصدها"[(١)].

(١) من الأسرار البيانية في الكناية القرآنية، د/ حمزة الدمرداش زغلول، ص ٦ (القاهرة: المطبعة الإسلامية الحديثة، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م).

ويأتي تشبيه آخر لنستمتع ببلاغة رسولنا الكريم ونتفيأ بظلاله؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١] – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "المَرْأَةُ كَالضِّلَعِ[٢]، إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ"[٣].

في هذا الحديث الشريف يوضح لنا النبي ﷺ أن المرأة كالضلع، والضلع أعوج، والضلع الأعوج إن حاول أحد أن يقيمه كسره، كذا المرأة إن حاول زوجها تغيير طبيعتها كُسرت، لذا على الرجل أن يستمتع بها بما فيها من عوج، فهي

---

(١) أبو هُرَيْرَة عبد الرحمن بن صخر الدوسي (المتوفي سنة ٥٩ هـ/٦٧٨م)، صحابي محدث وفقيه وحافظ، أسلم سنة ٧ هـ، ولزم النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظ الحديث عنه، حتى أصبح أكثر الصحابة روايةً وحفظًا للحديث النبوي. لسعة حفظ أبي هريرة، التفّ حوله الكثير من الصحابة والتابعين من طلبة الحديث النبوي الذين قدّر البخاري عددهم بأنهم جاوزوا الثمانمائة ممن رووا عن أبي هريرة. كما يعد واحدًا من أعلام قُرّاء الحجاز، حيث تلقّى القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعرضه على أُبي بن كعب، وأخذ عنه عبد الرحمن بن هرمز. تولى أبو هريرة ولاية البحرين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، كما تولى إمارة المدينة من سنة ٤٠ هـ حتى سنة ٤١ هـ. وبعدها لزم المدينة المنورة يُعلّم الناس الحديث النبوي، ويُفتيهم في أمور دينهم، حتى وفاته سنة ٥٩ هـ.
سير أعلام النبلاء، تأليف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤط، ج٢، ص٥٧٨ وما بعدها، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ هـ). وينظر: صفة الصفوة، تأليف جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، ج ١، ص ٢٦٦ (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

(٢) ضلع: الضاد واللام والعين أصل واحد، يدل على ميل واعوجاج كضلع الإنسان وغيره، سميت بذلك للاعوجاج الذي فيها. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، المتوفى ٣٩٥ هـ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج٣، ص ٣٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ج ٧، ص ١٢٦، رقم الحديث ٥١٨٤.

وإن استقامت في دينها فلن تستقيم فيما تقتضيه طبيعتها، وطبيعتها هذه سرُّ جمالها والسبب في الانجذاب إليها.

استهل الرسول ﷺ الحديث الشريف بالتشبيه المرسل؛ حيث شبه المرأة بالضلع في قوله: "المرأة كالضلع"، والوجه بينهما الانحناء والاعوجاج، ولم يفهم من التعبير النبوي بهذا التشبيه ذم المرأة أو التقليل من شأنها كما ظن الكثير بفَهمهم الخاطئ لهذا الحديث الشريف، بل قد أراد عليه الصلاة والسلام التنويه إلى قيمتها وارتفاع شأنها وأهميتها لأسرتها وزوجها، فالمرأة لأسرتها وزوجها كالضلع الذي خلقه الله معوجًا ليؤدي وظيفته التي خلق من أجلها، وهي الحفاظ على القلب والرئتين، فكما أن الأضلاع تحمي القلب في جسم الإنسان، كذلك المرأة تحمي أسرتها وهي قلب المجتمع، فالاعوجاج يناسب جانب الحنو وتغليب جانب العاطفة عند المرأة على زوجها وأولادها.

فللمرأة على زوجها أن يعاشرها بالمعروف وأن يحسن خلقه معها، وليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها فحسب، بل احتمال الأذى منها والحلم عن طيشها وغضبها، وذلك اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره إحداهن إلى الليل، ومع ذلك لم يكن يقسو عليهن، "وأعلى من ذلك أن الرجل يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء"[(١)]، وعلى هذا فإن التشبيه الذي ورد في الحديث يوحي بشدة حنو المرأة وقوة عاطفتها، ويشعر كذلك بأهميتها في أسرتها.

فـ"للتّشبيهِ: روعةٌ وجمالٌ، وموقعٌ حسنٌ في البلاغةِ: وذلكَ لإخراجهِ الخفِي إلَى الجلـيِّ، وإدنائِه البعيدَ منَ القريبِ، ويزيدُ المعانِي رفعةً ووضوحًا ويكسبُها

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، ج٨، ص ٧٩ (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣ هـ).

جمالًا وفضلًا، ويكسوهَا شرفًا ونُبلًا، فهوَ فنٌ واسعُ النطاقِ، فسيحُ الخطوِ، ممتدُّ الحواشِي مُتَشعبُ الأطرافِ مُتوعرُ المسلكِ، غامضُ المدركِ، دقيقُ المجرَى، غزيرُ الجدْوَى"(١).

إن الألوان البلاغية في الحديث الشريف تعين التشبيه على تحقيق هذا الهدف، فقد أتى المسند إليه معرفًا بـ"ال" الجنسية في قوله "المَرْأَةُ"، وذلك للإشعار بأن هذا الحكم يعم كل النساء، فلا تشذ عن هذا الحكم واحدة منهن. وتأتي جملة الشرط "إن أقمتها كسرتها" المشتملة على "إن" الشرطية، بدلًا من (إذا)، للإشعار بأن التفكير في أمر إقامتها وتغيير طبيعتها أمر مشكوك فيه وقليل، فلو أريد منها أن تترك اعوجاجها والتخلي عن طبيعتها ربما أفضى الأمر إلى فراقها، إذًا فلا يستطيع أحد فعل ذلك مهما حاول؛ إذ المعروف عن "إن" أنها تستعمل في الأمر غير المتيقن حدوثه والمشكوك في وقوعه(٢)، أما المعروف عن (إذا) فإنها تستعمل فيما هو واقع مُتيقن غير مشكوك فيه، مما يشهد بدقة التعبير النبوي.

وفي هذا "رمز إلى التقويم أولًا برفق، بحيث لا يبالغ فيه فيكسر، وهذا في الأمور التي تخص بحقه في المعاشرة، فإن تجاوزت الحد وارتكبت المعصية بمباشرتها فلا يتركها على عوجها"(٣). وتأتي جملة الشرط التالية "وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ" لتؤكد معنى التشبيه، وتساعد في تحقيق غايته، وقد

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمِي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، ج١، ص ٢١٩ (بيروت: المكتبةُ العصرية، د.ت).

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم الماوردي، ص ٣٦٧ (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، وينظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تأليف أحمد الهاشمي، ص ٤٣٦ (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢٩، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م).

(٣) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي، ج١٦، ص ٢٣٤ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

جاءت معطوفة على الجملة الشرطية السابقة لما بينهما من التوسط بين الكمالين، لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى، ولوجود المناسبة بينهما، وعدم المانع من العطف، "وهذه المناسبة بين الجمل ضرورية لصحة نسق الكلام وتلاؤمه، وكلما كان الامتزاج بين الجملتين أشد تلاؤمًا، كانت الواو أكثر تمكنًا وأحكم إصابة"(١).

ويلاحظ التكرار البديع في قوله: "وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ"، ويوحي التكرار اللفظي في الحديث الشريف باستمرار استمتاع الرجل بزوجته وتجدده، والتكرار ظاهرة بيانية يتوسل بها المنشئ لتحقيق وظيفة الربط على مستوى البنية السطحية للنص، وتحديدًا على مستوى مفردات النص، وقد حقق التكرار في الحديث الشريف – إضافة إلى الترابط النصي – التأكيد والحسم في الموقف بالدعوة إلى التعامل مع المرأة كما هي بما فيها من عوج، وبذلك يزيد التكرار من تماسك النص، فالتكرار يستعمله المتكلم لتسليط الضوء على الأمور المهمة العظيمة، وفي ذلك يقول الخطابي: "إنما يحتاج إلى التكرار ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بترك التكرار وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها"(٢).

ويُختم الحديث الشريف بالتذييل في قوله: "وفيها عوج"، وذِكرُ هذا التذييل تأكيدٌ لمعنى الكسر عند محاولة إقامتها. ويتعاون القصر مع التشبيه في تأكيد المعنى وتثبيته في قوله عليه الصلاة والسلام: "وفيها عوج"، حيث قصر العوج

(١) دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، أ.د. محمد محمد أبو موسى، ص ٢٨٥ (القاهرة: مطبعة وهبة، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي: مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، (القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٩٧٦م)، ص ٥٢.

على المرأة قصرًا إضافيًّا طريقه التقديم، وهذا القصر يوحي بأن هذا العوج يختص بالمرأة ولا يتعداها إلى غيرها، فهو من خِلقتها وطبيعتها، وفائدة القصر تأتي من أنه ضرب من ضروب الإيجاز الذي هو لب البلاغة وأساسها. وفنيةُ التنكير في قوله: "عوج" آزرت التشبيه في تحقيق معناه وبيان مؤداه، فهذا التنكير يوحي بدوام هذا العوج وثبوته؛ إذ إن هذا العوج من طبيعة المرأة وملازم لها. ولقد شكلت ضمائر الغيبة العائدة على المرأة ترابطًا قويًّا أدى إلى الانسجام، وأحدث إيقاعًا موسيقيًا متجانسًا، كما أن هذه الضمائر ربطت أجزاء الحديث بعضه ببعض، وبلغ عدد الضمائر خمسة ضمائر، كلها تعود على المحال إليها، ألا وهي المرأة.

المبحث الثاني:

من بلاغة الاستعارة في البيان النبوي – قراءة في أحاديث من صحيح البخاري

أسلوب الاستعارة إحدى أدوات البيان النبوي ، التي استخدمها الرسول ﷺ للتأثير في المتلقي، وجعله يقبل بالفكرة التي تطرح من خلال الحديث الشريف، وليس هذا فحسب، بل يسلم بها، فالاستعارة من أهم أساليب بناء الصورة الفنية في الخطاب الأدبي عمومًا شعرًا كان أو نثرًا، وقد جاءت الاستعارة في البيان النبوي لتحقيق أهداف سياقية مختلفة وغايات بلاغية مهمة. وفي البيان النبوي الشريف صور نهضت من خلال استعارات متنوعة، تصريحية ومكنية، لتشخيص المعاني وتجسيد الأفكار.

ومن الأحاديث التي وردت فيها الاستعارة ببلاغتها التأثيرية لإقناع المتلقي ما وردَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّما الأعمالُ بالنياتِ، وَإِنَّمَا لكلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[2].

في هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ أن أعمال الناس تكون بحسب نواياهم، فهم يختلفون في نواياهم ومقاصدهم، وعلى هذا فإن جميع الأفعال التي يقوم بها المسلم والأعمال التي يؤديها تكون عبادة وقربة إلى الله تعالى إذا نوى الشخص ذلك، وإذا لم ينو ذلك فله ما أراد، فالجزاء من جنس العمل، فمن قصد بهجرته الهجرة الشرعية لخدمة دينه وتعاليم نبيه، عليه السلام، فهجرته إلى الله ورسوله،

---

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ج٢، ص ٧، رقم الحديث ٥٠٧٠.

لأنها هجرة لغرض ديني، ومن كانت هجرته لغرض دنيوي كتحصيل مال أو زواج ستكون هجرته لغرضه الذي هاجر من أجله وقصدَه.

وقد آثر الرسول الكريم التصوير الاستعاري في قوله: "دُنْيَا يُصِيبُهَا"، ويحتمل هذا القول أن يكون استعارة مكنية أو أن يكون استعارة تصريحية، فعلى الاحتمال الأول يكون قد شبه الدنيا بالشيء الذي يصاب بالسهام، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه (الإصابة) على سبيل الاستعارة المكنية.

وعلى الاحتمال الثاني يكون قد شبه تحصيل الدنيا بإصابة الشيء بالسهم؛ بجامع الحرص على الوصول إلى المقصود، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من (أصاب/يصيب) بمعنى "يحصل" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل. وهذه الاستعارة تصور مدى حرص الشخص الذي يريد الدنيا على تحصيلها وكيفية أخذه بالأسباب حتى يصل إليها.

وقد أبرزت هذه الاستعارة (المعقولات في هيئة المحسوسات ، فتقترب من المتلقي ، وَيَتَمَلَّوُهَا بِبَصَرِهِ)[1]. فتحصيل الدنيا أمر معنوي، ولكي يبدو واضحًا جليًا عبر عنه بالتصوير الاستعاري، كما حقق هذا التصوير الإيجاز في المعنى والاختصار.

ف(الاستعارة أصدقُ أداةٍ تجعلُ القارئ يحس بالمعنى أكملَ إحساس وأوفاه ، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموسًا محسوسًا) [2].

---

١ الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد، د/ إبراهيم بن عبدالرحمن الغنيم (الشركة العربية، ط١، ١٩٩٦م)، ص. ١٥٢ .

٢ من بلاغة القرآن، للدكتور أحمد أحمد بدوي (القاهرة: دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت)**صـ٢١٧**

إن المتأمل في هذا الحديث يلاحظ الكثير من الألوان البلاغية التي انبرت لرسم الصورة حية نابضة، ولتقوية المعنى في نفس المتلقي؛ فقد صدر الحديث الشريف بقصرين، القصر الأول في قوله: "إنما الأعمال بالنيات"؛ حيث قصر الأعمال على النيات قصرًا حقيقيًا، من باب قصر الموصوف على الصفة، وطريق القصر "إنما"، والقصر يشعر بأن كل عمل يكون بحسب نية صاحبه، فهو مرتبط بها ويتوقف أجره عليها. و"ال" في قوله "الأعمال" للجنس، فهذه الكلمة تشمل جميع الأعمال الدنيوية والأخروية.

والقصر الآخر في قوله وَإِنَّمَا لكل امْرِئٍ مَا نَوَى"، وهذا القصر يؤكد المعنى الذي أفاده القصر الأول، فقد أشعر بأن عمل العبد لا يتعدى ما نواه، وأن جزاءه بحسب نيته. وتنكير كلمة "امْرِئٍ" يشعر بالعموم، وقد استمدت الكلمة العموم من إضافة "كل" إليها، فالحكم يشمل جميع المسلمين ولا يشذ عن هذا الحكم أحد.

وجملة "وَإِنَّمَا لكل امْرِئٍ مَا نَوَى" تعد تكرارًا معنويًا لجملة "إنما الأعمال بالنيات"، وفي التكرار "تأكيد وتقوية لما يهدف إليه الحديث الشريف، وفيه ذلك التناسق الموسيقي والإيقاع المتوازن في التصوير مما يثير الانتباه، ويوقظ الحس والوجدان، ويحرك المشاعر، فتتفتح لقبوله منافذ الإدراك المختلفة في النفس، فتستقر فيها، وتزداد تصديقًا وإيمانًا بقيمها السامية"[١].

والتقديم في قوله "لكل امرئ ما نوى" يقوي المعنى الذي أفادته الاستعارة، فقد قدم المسند "لكل امرئ" على المسند إليه (ما)، وذلك للإشعار بالاختصاص، فكل امرئ يختص بنتيجة نيته، وهذه النتيجة لا تتعداه إلى غيره أبدًا. وتأتي جملة

---

(١) التصوير البياني للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، ص٧ (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث).

الشرط والجزاء في قوله: "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله"، وقد اتحدت جملة الشرط والجزاء اتحادًا كاملاً بما فيها من الإيقاع والتناسق، كأننا نسمع الجملة بمضمونها ومعناها مرة أخرى.

وجاء التعبير بالجملة الاسمية لما تُشعِر به الجملة الاسمية من التأكيد والثبوت. والتعبير باسم الموصول في قوله: "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله" يشعر بالعظمة والفخامة، والعظمة تأتي من أن هجرته كانت لله ورسوله، والفخامة تتأتى من فخامة الأجر، فإنه أجر من الله عز وجل.

وإضافة هجرة إلى ضمير الغائب في قوله "هجرته" توحي بالاختصاص، فهذه الهجرة خاصة به، وجزاؤها خاص به كذلك، ولا يحصل على جزائها غيره. وتقديم لفظ الجلالة "الله" على "رسوله" للتعظيم والتشريف. وتأتي جملة الشرط الثانية في قوله عليه السلام: "ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"، وهذه الجملة محلُّ التصوير، وإن اتحاد فعل الشرط وجوابه زمنًا مع وجود الفاء في جواب الشرط يوحي بفورية حصول نتيجة هجرته ومقصده، ويؤكد الصورةَ التي استشعرت من هذه الجملة، وينم عن قدرته ﷺ على توظيف إمكاناته اللغوية في إبراز الصورة البيانية وتحقيق الغرض المساق له الكلام.

ويلاحظ أن النبي الكريم حينما ذكر الهجرة إلى الله ورسوله في فعل الشرط ذكر العبارة نفسها في جواب الشرط، بتكرار لفظ الجلالة ولفظ الرسول وإظهارهما، وكان يغني عنهما الضمير الذي يعود عليهما، تشريفًا للهجرة وتفخيمًا لأثرها، وتعظيمًا للمُهَاجَر إليه وهو الله ورسوله، بينما لم يكرر الاسم الظاهر في الهجرة إلى الدنيا أو المرأة ولم يظهره، بل اكتفى بالضمير العائد عليهما في جواب الشرط، إذ قال: "فهجرته إلى ما هاجر إليه"، تقليلًا من شأنها وتحذيرًا منها، وتنبيهًا على ضرورة عدم الانزلاق في متاهاتها.

وتنكير "دُنْيَا/امْرَأَةٍ" للعموم، فليس المقصود دنيا أو امرأة بعينها، لكن المراد أن الحكم يعم كل دنيا أو امرأة يُهاجَر إليها، وربما يوحي هذا التنكير بهوانهما وقلة قيمتهما، كما أنه يؤكد المعنى السابق من ضعف أجر الهجرة إلى الدنيا أو المرأة، وأن أجر الهجرة إلى الله ورسوله أعلى.

إن التعبير بالفعل المضارع في قوله: "يُصِيبُهَا – يَنْكِحُهَا" لاستحضار صورة إصابة الدنيا ونكاح المرأة وفرحة صاحبهما بهما، فقد أراد النبي الكريم استحضار هذا المشهد ليُرِيَ المتلقي فرحة الحاصل على الدنيا والمتزوج بامرأة أعجبته وسعادته بهما، وأن فرحة من هاجر إلى الله ورسوله بأجره أكبر وأدوم؛ إذ إنه بهجرته هذه قد ابتغى وجه الله تعالى.

وبين جملتي الشرط في الحديث تقابل معنوي، فالهجرة إلى الله ورسوله تقابل الهجرة إلى دنيا أو امرأة، فالفرق بينهما شديد والبون شاسع، فالمقابلة سبب من أسباب الوفاء بالمعنى وعامل من عوامل تمام الغرض وتحقيقه.

وتمثل ضمائر الغيبة أهمية عظيمة في تماسك نص الحديث وانسجامه؛ إذ يوجد ضمير الغائب المتصل الواقع فاعلًا للأفعال "نوى/ هاجر/ يصيبها/ ينكحها"، وضمير الغيبة الواقع مضافًا إليه في قوله "هجرته" المتكررة أربع مرات، حيث يتميز الضمير الغائب بالغياب عن الدائرة الخطابية، والقدرة على الربط بين أجزاء النص ربطًا محكمًا يتحد فيه البناء.

وكذلك قامت الإحالة التكرارية بدورها في ترابط النص، حيث تكررت جملة الشرط "من كانت هجرته ..." وجملة الجواب "فهجرته ..." مرتين، وقد حقق هذا التكرار – إضافة إلى الترابط النصي – التأكيد والحسم في الموقف بالدعوة إلى الهجرة إلى الله ورسوله، وبذلك يزيد التكرار من تماسك النص. كما تعاونت الأساليب وتكاتفت العبارات وتآزرت الألفاظ مع التصوير الاستعاري في إفادة المعنى المراد من الحديث، فجاءت المعاني واضحة، والتراكيب متآلفة متناسقة.

ويأتي تصوير استعاري آخر في الحديث التالي، تتضح من خلاله البلاغة النبوية الفائقة والبيان النبوي المصيب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تَسْأَلُ طَلاَقَ أُخْتِهَا، لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا[(١)]، فَإِنَّمَا لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا"[(٢)].

هذا الحديث يوضح لنا أنه لا يحل لامرأة أجنبية أن تطلب من رجل أن يطلق زوجته ليتزوجها، أو تشترط عليه ذلك إن خطبها حتى يتزوجها، وكذلك لا يحل للزوجة أن تطلب من زوجها أن يطلق ضرتها، سواء كانت أختًا لها في النسب، أو الرضاع، أو الدين؛ لتحل محل أختها، وتأخذ مكانها، وتحرمها مما كانت تتمتع به من حظوظ، وتستأثر هي بكل شيء، فعلى كل امرأة أن ترضى بما قدر لها من رزق.

وفي الحديث الشريف صورة استعارية رائعة؛ فقد استعار الرسول ﷺ الصحفة للحياة الزوجية وما يتصل بها من متع متنوعة، وهذه الاستعارة تصور نهم تلك المرأة وجشعها إذا أقدمت على حياة أختها وسرقتها بما فيها من حظوظ ومتع، وقلبت لها حياتها نكدًا وغمًا، فحالها معها كمن قلبت آنية أختها فأفرغتها من الطعام وهي تأكل، فقتلت متعتها وحرمتها من طعامها الذي هو سبب من أسباب بقائها، مما يشعر بقسوتها وأنانيتها المفرطة. والاستعارة جسدت المعنى وأدت دورًا بارزًا في إيضاح المعاني من خلال اختيار الألفاظ والتراكيب بدقة واضحة.

(١) إناء كالقصعة والجمع صحاف، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ج ٤، ص ١٣٨٤ (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م)، مادة (ص–ح–ف).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ج ٧، ص ٢١، رقم الحديث ٥١٥٢.

وللشريف الرضي في هذه الصورة رأي آخر؛ إذ رأى أن في الحديث تشبيهًا تمثيليًا، فهو يقول إن النبي الكريم "شبه حالة الأخت التي تعمل على طلاق أختها من زوجها لتتزوج هي به بحالة الشخص الذي يقلب الإناء فيفرغ ما فيه ثم يأكله أو يشربه كله، فوجه الشبه منتزع من متعدد، وهو تشبيه طلب التطليق بمحاولة قلب الإناء ووقوع التطليق بإفراغ الإناء والزواج بزوج الأخت بأكل ما في الإناء كله أو شربه كله، فوجه الشبه منتزع من متعدد"(١)، وسواء أكانت الصورة البيانية تشبيهًا أو استعارةً فإنها توحي بقبح هذا الصنيع وبشاعته.

وقد اشتمل الحديث على إشارات بلاغية زادت المعنى وضوحًا والاستعارة جمالاً، وأخرجت المعنى في أبهى صورة، وأبرزت الفكرة في أوضح أسلوب، فقد استُهِل الحديث الشريف بالجملة الخبرية في قوله: "لا يحل لامرأة تَسْأَلُ طَلاَقَ أُخْتِهَا"، والمراد من الخبر الزجر والتحذير من أن المرأة تسأل طلاق أختها. كما أن التنكير في الحديث الشريف يشد عضد الاستعارة لبيان المعنى المراد، فتنكير كلمة "امرأة" للعموم، فالتنكير يشعر بأن هذا الحكم يعم كل نساء المسلمين، فالخطاب عام لكل امرأة مسلمة تطلب هذا الطلب وتكون السبب في هدم البيوت وتفريق شمل الأسرة، فلا يليق بمسلمة مثل هذا الصنيع.

أما تنكير "طلاق" فللتعظيم والكثرة، إذ يساعد هذا التنكير في تصوير عظم أثر هذا الأمر على المرأة المطلقة، وخطره على الأسرة والمجتمع، فأثره على المرأة عظيم، وخطره أشد على الأسرة والمجتمع. والتعبير بلفظ "أخت"، مضافًا إلى ضمير المرأة التي يطلب طلاقها، يوحي بقبح المرأة التي تطلب هذا الأمر، ويرسم شناعة فعلها، كما يثير تعاطف المتلقي وشفقته على تلك المرأة، ويستثير

(١) المجازات النبوية، الشريف الرضي: لأبي الحسن محمد العلوي الموسوي، ص ٥٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧).

غضبه على المرأة التي تطلب ذلك، فهذه المرأة كأنها طمعت فيما في إناء أختها من أطعمة، وأمالت الإناء إلى نفسها فقلبته لتستفرغ ما فيه وتستأثر به، فما أبشع هذه المرأة وأخسها!

والتعبير بالفعل المضارع "لِتَسْتَفْرِغَ" لاستحضار صورة شخص يستفرغ صحفة شخص آخر يأكل طعامه مستمتعًا به، فيقلب هذه الصحفة في صحفته ويأخذ طعامه منه، ليأكله هو ويستمتع به، ولا شك أن هذه الصورة قبيحة مستفزة ينفر منها كل ذي فترة طيبة.

وإن إضافة الصحفة إلى ضمير المرأة المطلوب طلاقها في قوله "صَحْفَتَهَا" توحي بتعدي المرأة الطالبة لهذا الأمر ويُشعِر بتبجحها، فقد أخذت من امرأةٍ أخرى حقها وما يخصها في حياتها الزوجية، والتعبير بالصحفة دون غيرها يشعر بأهمية هذه الحياة للمرأة المتزوجة، كما يبرز قسوة المرأة الطالبة طلاق أختها، فمن المعلوم أن الطعام من الأسباب الضرورية لبقاء الحياة.

وتأتي الجملة الاسمية المؤكدة في قوله "فإنما لها ما قدر لها" لتُسهم في تقرير المعنى وإثباته في ذهن المتلقي. والفاء في القول السابق قد حققت تماسكًا نصيًا، وترابطًا عضويًا بين أجزاء الحديث، وعاونت على ذلك ضمائر الغيبة في قوله "أختها – طلاقها – لها"، وقد أحدث هذا التماسكَ بين الجمل وأسهم في إبراز المعاني وتوضيحها. ويلاحظ بناء الفعل للمجهول في قوله: "ما قُدِر لها"؛ لأن الفاعل معلوم، فهو الله عز وجل، كما أن النبي الكريم كره أن يذكر اسمه – تعالى – في هذا المقام، فهو مقام غبن وتعدٍّ على حقوق امرأة سُرِقَت سعادتها منها.

ويأتي القصر ليعمق الفكرة التي أفادها التصوير ويؤكد المعنى الذي أراده الرسول ﷺ؛ حيث قصر حظ المرأة السائلة ونصيبها على مقدَّر لها؛ قصرًا حقيقيًا طريقه "إنما"، وهذا القصر يشعر بعدم أحقية هذه المرأة في النظر إلى حظ

غيرها، فكما أن قدرها ونصيبها يتعلقان بها، من غير تعدٍّ إلى غيرها، كذلك فإن غيرها من النساء يختصصن بأقدارهن، وأقدارهن تختص بهن.

هكذا تمكنت الاستعارة – بمصاحبة الألوان البلاغية الأخرى في الحديث– من تصوير الحياة الزوجية على هذا النحو، من بناء صورة مادية تمثلت أمام المتلقي، وألقت في نفسه تنفيرًا شديدًا من الإتيان بهذا الفعل لأنه يؤدي إلى فساد المجتمع، وتمزيق العلاقات فيه، وظهور الضغينة والبغضاء بين أبنائه.

ويطالعنا تصوير آخر في الحديث التالي، تتبين من خلاله بلاغة التصوير النبوي ومدى تأثيره في المتلقي، فعن عبد اللَّه بن مسعود[1] قال: قال رسول اللَّه ﷺ: "إن الصدقَ يهدي إلى البر، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجلَ ليَصْدُقُ حتى يكون صدِّيقًا، وإن الكذبَ يهدِي إلى الفجور، وإن الفجورَ يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذِبُ حتى يُكتَب عند الله كذابًا"[2].

في هذا الحديث يحثنا النبي ﷺ على الصدق وملازمته وتحريه في كل موقف، كما بيَّن ثمرته في الدنيا وجزاءه في الآخرة، فالصدق أصل البر الذي هو الطريق إلى الجنة، فالرجل إذا لزم الصدق كُتب عند الله – تعالى – مع

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الهذلي، سادس من أسلم، وأول من جهر بالقرآن الكريم، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها؛ إذ كان ملازمًا للرسول ﷺ، وروى أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، مات بالمدينة المنورة سنة اثنين وثلاثين، وقيل مات بالكوفة، والأول أثبت. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣٦٨/٢، ٣٦٩ للإمام ابن حجر العسقلاني، ط١، دار صادر، بيروت، ١٣٢٨ هـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِين} [آية ١١٩] من سورة التوبة، وما ينهى عن الكذب ٨/ ٢٥ رقم ٦٠٩.

الصديقين، وكذلك حذر النبي ﷺ من الكذب، وبيَّن مضرته وشؤم عاقبته، فهو أصل الفجور الذي هو طريق إلى النار.

ولكي يقرب الرسول ﷺ فكرته للأذهان، ويحقق غايته من الترغيب والتحذير، لجأ إلى التصوير الاستعاري، وقد جاء هذا في قوله: "إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة"، فقد شبه كلًّا من الصدق والبر برجل عاقل رشيد ينصح ويرشد بإخلاص، ثم حذفه، وذكر شيئًا من لوازمه وهو الهداية على سبيل الاستعارة المكنية، وقد جعلت الاستعارة من الصدق والبر صورة رجل يقود صاحبه إلى مجامع الخير، فخلعت عليهما التشخيص وجعلتهما يمشيان، ويتحركان، ويتكلمان، بل يأخذان المتصف بالصدق إلى الجنة، وهذه مزية الاستعارة التي ترينا "الجمادَ حيًّا ناطقًا، والأعجمَ فصيحًا، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً ... إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلَّا الظنون"(١).

ثم تأتي الصورة المقابلة في قوله: "وإن الفجور يهدي إلى النار"؛ حيث يشبه كلًّا من الكذب والفجور برجل يوجه وينصح، ثم حذفه وذكر شيئًا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية التهكمية، وهذا التصوير يوحي بالسخرية من صاحب هذه الصفة، من باب قوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}.

لقد تحول كل من الكذب والفجور في الحديث من صورة معنوية ترسمها النفس في عالم الخيال إلى صورة مجازية أعطت لكل من الكذب والفجور من صفات الأحياء ما جعلتهما رجلًا يقود صاحبه ليهوي به في الهاوية، فالكذب هنا يمشي ويتحرك، لكنه يتحرك بصاحبه إلى الفجور، والفجور يهوي به إلى النار،

(١) أسرار البلاغة، ص ٦٠.

لقد تجسد هذا المعنى بفضل الاستعارة، ومن الفضيلة الجامعة فيها كذلك "أنها تُبرز هذا البيان أبدًا في صورة مُستجَدَّةٍ تزيد قَدرَه نُبْلاً، وتوجب له بعد الفضلِ فضلاً، وإنَّكَ لَتَجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد حتى تراها مكرّرة في مواضعَ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأنٌ مفردٌ، وشرفٌ منفردٌ، وفضيلةٌ مرموقة، وخلاَبةٌ مرموقة"(١).

وتتجاور الأساليب والتراكيب والألفاظ، ويقوِّي بعضها البعض لتتعاون مع التصوير لإبراز الفكرة وإيضاح المعنى، فقد صدر الحديث بالجملة الاسمية "إن الصدق..."، وذلك يقوي المعنى في ذهن السامع ويؤكده. وتعريف "الصدق /البر" بـ"ال" العهدية يشير إلى أن الصدق المقصود هو الصدق والبر المعهودان بالنفع لصاحبهما والتأثير الإيجابي في الآخرين.

والتعبير بالفعل المضارع المتكرر "يهدي" لاستحضار صور الهداية المختلفة، لكلٍّ من الصدق والكذب، مما أبرز المعنى التصويري وأدى إلى اتساع الخيال. والتعبير بكلمة "الجنة" يشيع البهجة وينشر الأمل الذي يعيش من أجله كل مسلم، كما يوحي بحسن الخاتمة. وأما التعبير بلفظ النار فيوحي بالوحشة ويشعر بسوء العاقبة التي تنتظر الكذابين المخادعين. والتعريف بـ"ال" في كلمة "رجل" في العبارتين "وإن الرجل ليصدق/ وإن الرجل ليكذب" يشير إلى أن الرجل الذي يقول الصدق دائمًا يكون معهودًا بذلك بين الناس، وكذلك الذي يتكلم بالكذب دائمًا يكون معهودًا بذلك.

والتعبير بالفعل المضارع "يصدق/يكذب" يوحي باستمرار الصادق في صدقه والكاذب في كذبه، والمبالغة في هذين الأمرين حتى صارا ديدنهما، كما أن في هذا التعبير استحضارًا لصورة الرجل الصادق الذي اعتاد الناس على

(١) السابق، ص ٣٣.

صدقه في القول والفعل، وكذلك صورة الكاذب الذي اعتاد الناس على كذبه في القول والفعل، فيعجب السامع بالصادق وينفر من الكاذب.

أما التعبير بالفعل "يكتب" فيلامس القلوب ويبث الطمأنينة والفرحة في نفوس الصادقين، وكذلك يبث القلق والخوف في نفوس الكذابين، لأن هذا الفعل يوحي بأنه قد حكم للصنف الأول بحسن الخاتمة، والصنف الآخر بسوء الخاتمة، وأن الصادق أصبح ممن يحمل صفة الصادقين، ويستحق منزلة الصديقين وثوابهم، وأن الكاذب أصبح ممن يحمل صفة الكذابين ويستحق عقابهم. وإن التعبير بصيغة المبالغة "صدِّيقًا" يوحي بتعظيم شأن الصادقين، ويشعر بارتفاع منزلتهم، وأنهم مأمونو العاقبة، فإنهم لم يصدقوا مرة أو مرتين، بل تكرر منهم ذلك مرات عدة، وفي مواقف كثيرة، وكانت حياتهم يملأها الصدق والإخلاص، ففي القاموس: "الصديق من يتكرر منه الصدق حتى يستحق اسم المبالغة في الصدق"(١).

أما التعبير بصيغة المبالغة في قوله "كذَّابًا" فيوحي بحقارة هؤلاء الكذابين وقلة شأنهم؛ لأنهم قد تكرر منهم الكذب مرات عدة وفي مواقف كثيرة، فحياتهم يملأها الكذب والخداع، مما يوحي بأنهم غير مأموني العاقبة. والوصل بين الجمل في الحديث يعمل على الترابط القوي بين أجزائه، وقد تحقق الوصل لما بينها من التوسط بين الكمالين؛ لاتفاقها في الخبرية لفظًا ومعنى، كما أنها اتفقت في الفكرة، واتحدت في الغاية والهدف، وهو الترغيب في الصدق والتحذير من الكذب، وقد كان لهذا الوصل الأثر القوي في إدراك المعنى الاستعاري واستيعابه.

ويلاحَظ أن النص النبوي قد جاء مؤكَّدًا بأكثر من مؤكِّد، ألا وهي: "إنَّ" ست مرات، واسمية الجملة، ولام التوكيد؛ وذلك تثبيتًا للفكرة في الأفئدة، وتأكيدها

(١) القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مادة (ص– د –ق)، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣).

في النفوس، وترسيخًا للمعنى في الأذهان وتقريره، وتصدرت أداة التوكيد "إنَّ" الكلام ليضمن الإيصال والتثبيت، بالإضافة إلى حسم التردد والشك في القبول والتلقي، يقول الزملكاني: "وتجيء إنَّ للربط بين جملتين لتوصل إحداهما بالأخرى، فتراهما بعد دخولها كأنهما قد أفرغا في قالب واحد"(١).

ومن الفنون البديعية التي جعلت المعنى الاستعاري مؤثرًا مقنعًا، والفكرة جلية واضحة: المقابلة بين شطري الحديث، فالمقابلة هنا بين صورتين: صورة الكذب بكل ما فيها من خداع وغش وتلون، وصورة الصدق بكل ما فيه من وضوح وشفافية وعدم تلون وإخلاص، فالمقابلة كانت سببًا من أسباب الوفاء بالمعنى وتمامه، ثم تحقيق الهدف والغاية؛ لأن العقل البشري دائمًا يأنس لاستحضار الصورة العكسية. وتستمد المقابلة "قيمتها الفنية ومزيتها البلاغية من مدى الدور الذي تؤديه في إطار الغرض الكلي للنص الكامل، أو الصورة الكلية"(٢)، وهو دور واضح للمقابلة في هذا الحديث؛ إذ أثارت الانتباه إلى الفكرة، ورسختها في النفس وأبرزت المعنى، وأوضحته.

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، ص ١٥٦، (القاهرة: رئاسة ديوان الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي).

(٢) من وجوه تحسين الأساليب في ضوء بديع القرآن، د. محمد إبراهيم شادي، ج ١، ص ٣٣ (مصر: مطبعة السعادة، ١٤٠٨ هـ، ١٩٧٨م).

الخاتمة:

الحمد لله في الأولى والآخرة، لقد انتهيت من هذا البحث بفضل الله بعد أن قضيت فيه فترة من الزمن، وإنها بحق كانت لحظات ممتعة؛ إذ أتيحت لي الفرصة لمعايشة ذلك الروض المزهر، والتعامل مع كلام أفضل البشر على الإطلاق، فلقد تميزت بلاغته ﷺ بالغوص في أعماق النفس ومخاطبة القلب والضمير، وإحكام الأداء، وكان وقعها في النفوس وقعًا بلغ من تأثيرها ما لم تنقض عجائبه، ولم يذهب برونقه تقادم العهد وكثرة الترداد.

وقد توصلت في نهاية بحثي إلى النتائج التالية:

١) تميزت الأحاديث المختارة بالتشبيهات والاستعارات الموحية المؤثرة في نفوس المتلقين، فما جاءت الصورة البيانية منهما إلا وكان وراءها سر بلاغي، وهدف أخلاقي.

٢) كشفت الدراسة عن قدرة النبي ﷺ على التصوير الموحي المؤثر، فقد كانت قدرة فريدة متميزة.

٣) لم تأت التشبيهات والاستعارات في الأحاديث المختارة مصنوعة أو متكلفة، بل جاءت عفو الخاطر غير مقصودة لذاتها، تتسم بالبديهية والارتجال؛ إذ كان الحال هو الذي يطلبها، فما كانت إلا وسائل بيانية يفرضها الموقف ويستدعيها المقام، وقد كان هذا هو شأنها في البيان النبوي عامة.

٤) كان للتشبيه والاستعارة في البيان النبوي سمات وخصائص جعلت التصوير النبوي متميزًا متفوقًا على التصوير الوارد في كلام البشر.

٥) وهناك نتيجة مهمة تجب الإشارة إليها، وهي أن البيان النبوي لا يقف عند حدود الدقة في التصوير، وإحكام صياغة الصورة البيانية فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تحقيق غايات تعليمية وتوجيهية وتربوية.

وأخيرًا أرجو أن أكون قد وُفقت في هذا البحث وأسهمت ولو بشيء قليل في خدمة البلاغة النبوية. هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع:

١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، ج٨، (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣ هـ).

٢) أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).

٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط٧، ١٩٦١).

٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي (القاهرة: رئاسة ديوان الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي).

٥) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

٦) بيان إعجاز القرآن للخطابي: مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، (القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٩٧٦م).

٧) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٧، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨).

٨) التصوير البياني للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث).

٩) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تأليف أحمد الهاشمي، مراقب مدارس فيكتوريا الإنجليزية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢٩، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م).

١٠)جواهرُ البلاغةِ في المعاني والبيانِ والبديعِ، أحمد بن إبراهيم بن مصطفي الهاشمِي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلِي، (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت).
١١)الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم الماوردي، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).
١٢)دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، أ.د. محمد محمد أبو موسى، (القاهرة: مطبعة وهبة، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).
١٣)سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ هـ).
١٤)شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د. محمد أبو موسى (القاهرة: مطبعة وهبة، ط١، ١٤٢١هـ).
١٥)الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م).
١٦)صحيح البخاري، ط. دار إحياء التراث العربي.
١٧)صحيح مسلم، بشرح النووي (بيروت: دار المعرفة، ط٥، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
١٨)صفة الصفوة، تأليف جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي (القاهرة: دار الحديث،١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
١٩)الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: المكتبة العنصرية، ١٤١٩ هـ).
٢٠)الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد، د/ إبراهيم بن عبدالرحمن الغنيم (الشركة العربيي، ط١، ١٩٩٦م).

٢١)عمدة القارئ: شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م).
٢٢)فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلانِي، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).
٢٣)في رحاب البلاغة النبوية، د/ فرج كامل سليم (المنصورة: مطبعة ومكتبة الرضا بطلخا، د.ت).
٢٤)القاموس المحيط، للفيروز آبادي (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣).
٢٥)المجازات النبوية، الشريف الرضي: لأبي الحسن محمد العلوي الموسوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧).
٢٦)من الأسرار البيانية في الكناية القرآنية، د/ حمزة الدمرداش زغلول، (القاهرة: المطبعة الإسلامية الحديثة، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٢٧)من بلاغة القرآن، د/ أحمد أحمد بدوي (القاهرة: دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت).
٢٨)من وجوه تحسين الأساليب في ضوء بديع القرآن، د. محمد إبراهيم شادي، ج١، (مصر: مطبعة السعادة، ١٤٠٨هـ، ١٩٧٨م).

□